قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقوله :

﴿ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ « فى » هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدَّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿ أَرْسَلْنَا .. (٢٦) ﴾ [الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿ بَعَثْنَا .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وهناك فرق بين المعنيين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم ـ عليه السلام ـ حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض . وقال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وقال فى آية أخرى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم ـ عليه السلام ـ والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض فى أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتى هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هى موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلهى ، كان يجب أنْ يظلَّ على ذكر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلّغ فلا يُبلّغ ، وقد تصيب المبلَّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله الرسل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة فى هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا[1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضعُون لأنفسهم القوانين التى تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتى أهمية وَضْع القوانين ونشرها فى الصحف والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أنْ نعاقبَ إنساناً على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متعاصريْن ؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى متعاصريْن ؟ فما علَّة ذلك ؟

(١) خلا : مضى وذهب وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

نقول : لأن العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة فى مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة فى أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون[1] الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلّ فى بلد على حدَة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً فى أمريكا فنعلم بها فى نفس اليوم .. إذن : أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أنْ يُرْسلَ ﷺ للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨)﴾ [سبأ]

أى : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كففْتُ القماش أى : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شىءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

---

(١) طفف المكيال : بخسه ونقصه . [المعجم الوجيز ـ مادة : طفف] .

هذه هى مهمة الرسل :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أىِّ شىءٍ تنهانا ؟

فهنا أَمْر بالعبادة ونَهْى عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلية وتَخْلية : التحلية فى أنْ تعبدَ الله ، والتخلية فى أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبْنَى قضية الإيمان حيث نَفْى فى : « أشهد أن لا إلهَ » .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة ينفى التعدُّد ، ويُثبت الوحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : خُلِّى عن العذاب .

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : حُلِّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

أى : ابتعدوا عن الطـاغوت .. فيكون المقابل لهـا : تقرَّبوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مـبالغة تدل على مَنْ وصل الذُّرْوة فى الطغيان وزادَ فيه .. وفَرْق بين الـحدث المجرَّد مثل طغى ، وبين المبـالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يَزيده الخضـوعُ لباطله طُغْياناً إلى باطل أعلى .

ومثال ذلك : شاب تمرَّد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشىء التافه القليل ، فـوجد الناس يتـقرَّبـون إليه ويُداهنونه اتقـاء شره ، فـإذا به يترقَّى فـى باطله فيشـترى لنفسه سـلاحاً يعتـدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأمـوال ، ويصل إلى الذروة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديـات تتحملهـا العاقلة[1] وتقوم بهـا عن الفاعل الجانى ، ذلك لمـا وقع عليهـا من مسئولية تَرْك هذا الجـانى ، وعدم الأخذ على يده وكَفِّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغـوت) أنه لما جمعَ كلَّ مبـالغة فى الفعل نجـده يتأبَّى على المطاوعة ، وكأنه طاغـوت فى لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المـفرد والمثنى والجـمع ، وعلى المذكـر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغـوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان العرب ـ مادة : عقل] .

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لظُلمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿فَاسْتَخَفَّ[1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤)﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨)﴾ [القصص]

ويُحكَى فى قصص المتنبِّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألاَّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعى النبوة ، فجاءوا بالأول ليرى رأيه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟! أيُكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب فإنى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتأنيث ، ومرة وردتْ للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧)﴾ [الزمر]

ومرة وردتْ للمذكر فى قوله تعالى :

---

(١) استخفه : استضعف عقله وسخَّره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحُمْق . [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. (٦٠) ﴾ [النساء]

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

وقوله :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرَّة للمذكّر ، ومرّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حُجّة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دَخْل فى أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ،

ولهم حَقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتى للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدىً وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الأولى ، وأثبتها له فى الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُنفكّة .. فى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي .. (٥٦) ﴾ [القصص]

أى : لا تستطيع أنْ تُدخِل الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرِف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكان الله تعالى فى خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسَّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتى الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما فى الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونةٍ بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

حقَّتْ : أى أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرِموا الهداية .

ونذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ فى الأذهان ـ ولله المثل

الأعلى - هَبْ أنك سائر فى طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضلك أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كدْتُ أضلّ الطريق ، وجزاكَ الله خَيْراً .

فلمّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن فى هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرّد دلالة ، أما الثانية فهى المعونة ، فلمّا صدَّقْته فى الدلالة أعانكَ على المدلول .. هكذا أمْرُ الرسل فى الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق .. فسيقول لك : إذن اتجه كما تُحب وسرْ كما تريد .

وكلمة « الضلالة » مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير ، ففيها تضخيمٌ للفعل ، ومنها قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا .. (٧٥) ﴾ [مريم]

ثم يُقيم لنا الحق - تبارك وتعالى - الدليلَ على بَعْثة الرسل فى الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى ، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذِّب ومُصدّق ، قال تعالى :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة فى الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وهل نحن نسير فى الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثْبت العلم صدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هى هذه اليابسة التى نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير فى الأرض ، كما نطق بذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه العزيز .

ونقف أمام مَلْحظ آخر فى هذه الآية :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (١٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى آية أخرى يقول :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام]

ليس هذا مجرد تفنُّن فى العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أى : يأتى النظر بعد السَّيْر مباشرة .. أما فى العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخى . أى : مرور وقت بين الحدثَيْن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ[1] (٢٢)﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿فَانظُرُوا .. (٣٦)﴾ [النحل]

فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفد إليها السُّياح من شتى دول العالم المتقدم ؛ ليَروْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيِّرهم ، ولم يستطيعوا فَكَّ طلاسمه حتى الآن .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس] بعثه من قبره . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى ؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أُخذوا أَخْذة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى :

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] (٩٨)﴾ [مريم]

وقد ذكر لنا القرآن من قصص هؤلاء السابقين الكثير كما في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر]

وقال :

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ[3] عَذَابٍ (١٣)﴾ [الفجر]

هذا ما حدث للمكذِّبين في الماضي ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذي يأتي بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير .. كلا :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) الركز : الحسّ والصوت الخفيّ تسمعه من بعيد . [لسان العرب - مادة : ركز] .

(٢) يعني : يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتُونها ويخرقونها . [تفسير ابن كثير ٤/٥٠٨] .

(٣) قال الفراء : هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط جرى به الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب - مادة : سوط] .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يُسلِّي الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ ، ويثبت له حِرْصَه على أمته ، وأنه يُحمِّل نفسه في سبيل هدايتهم فوق ما حَمَّله الله ، كما قال له في آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذبين المعاندين ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل]

أي : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره ، بل ويطمس على قلبه غَيْرَ مأسوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله إلى ما يريد .

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) باخع : مهلك . بخع نفسه : قتلها هماً وغيْظاً وحُزْناً .

إذن : المسألة ليستْ مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلِّصهم منها ، كما قال تعالى :

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾ [الشعراء]

إذن : لا يهدى الله مَن اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعذِّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصُره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ (١) بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

سبحان الله !! كيف تُقسمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟! وما مدلول كلمة الله عندكم ؟.. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح فى عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليلٌ على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة فى اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً .. فالتلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

---

(١) ذكر الواحدى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك دَيْن فتقاضاه ، فكان فيما تكلم به المسلم : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت ، فنزلت الآية [أسباب النزول للواحدى ص ١٦٠] ، [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٩] .

إذن : توجد المعانى أولاً ، ثم توضع للمعانى أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله .. فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتم ؛ لأن كلمة الله لفظ موجود فى اللغة ، ولا بُدّ أن لها معنىً سبق وجودها .

إذن : فالإيمان سابقٌ للكفر .. وجاء الكفر منطقياً ؛ لأن معنى الكفر : السَّتْر .. والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

أى : مبالغين فى اليمين مُؤكِّدينه ، وما أقربَ غباءَهم هنا بما قالوه فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأنْ قالوا :

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بَلَىٰ ﴾ .

وهى أداة لنفى النفى السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفى النفى إثبات ، إذاً « بلى » تنفى النفى قبلها وهو قولهم :

﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨)﴾ [النحل]

والوَعْد هو الإخبار بشيء لم يأتِ زمنه بعد ، فإذا جاء وَعْدٌ بحدَث يأتي بَعْد ننظر فيمَنْ وعد : أقادرٌ على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

فإن كان غيرَ قادر على إنفاذ ما وعد به لأنه لا يضمن جميع الأسباب التي تعينه على إنفاذ وعده ، قُلْنا له قُلْ : إنْ شاء الله .. حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً ، وحتى لا تُوصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يمنعنا أن نُخطِّط للمستقبل ونعمل كذا ونبني كذا .. خَطِّط كما تحب ، وأعْدُدْ للمستقبل عدّته ، لكن أردف هذا بقولك : إنْ شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسبابَ التي تمكِّن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

ونضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك أردتَ أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه في أمر ما .. هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمنتَ ألاَّ يتغير الداعي الذي تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب ألَمَّ بك

عائق منعك من الذهاب . إذن : يجب أن نُردف العمل في المستقبل بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ ما يَعِد به ؛ لأنه لا قوة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ، ولا شيءَ يُعجِزه في الأرض ولا في السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً) أنْ يُوفّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النحل]

أي : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

وقال : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فقد استبعد الكفار أمر البعث ؛ لأنهم لا يتصورون كيف يبعث الله الخلْق من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ حتى تقوم الساعة .. ولكن لِمَ تستبعدون ذلك ؟ وقد قال تعالى :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان]

فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على حدة .. لا .. ليس في الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً .

---

(١) رفت الشيء ، جعله رفاتاً : أي دقّه وكسّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

ونضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - فنحن نرى مثل هذه الأوامر فى عالم البشر عندما يأتى المعلّم أو المدرب الذى يُدرِّب الجنود نراه يعلِّم ويُدرِّب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمتثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندى وأوقفه كما يريد ؟! لا .. بل بكلمة واحدة تَمَّ له ما يريد .

وكأن انضباط المأمور وطاعته للآمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات فى الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى .. هى كلمة واحدة بها يتم كل شىء .. فليس فى الأمر مُعَالجة ، لأن المعالجة أنْ يُباشر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا .. بل بالأمر الانضباطى : كن .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨)﴾ [النحل]

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾

فمعنى قوله تعالى :

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. (٣٩)﴾ [النحل]

أى : من أمر البعث ؛ لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت فى جدالى للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفترين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا .. فماذا فعلتُم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة ١٩١٧ ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتى فَصْلُ الخطاب فى قوله تعالى :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾ [النحل]

أى : كاذبين فى قولهم :

﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

وذلك علم يقين ومعاينة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدى التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين فى قَسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يموت وبالغوا فى الأَيْمان وأكَّدوها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ(١) الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ [الواقعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضمّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهى (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومُزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظرٌ دورَه ، منتظر الإشارة ؛ ولذلك جاء فى الخبر : « أمور يبديها ولا يبتديها » .

فالأمر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين .. تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذى وُضِع فيها ، ثم تنفجر دون تدخُّل من صانعها .. مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها فى الإذن .. وإن كان الأمر فى حقِّه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين . وهو أيضاً الذنب العظيم والإثم . وقيل : هو الشرك . [لسان العرب ـ مادة : حنث] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ(١) فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد فى سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّى الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمر يقينىّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذى أنكره الكافرون وألحُّوا فى إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسيء ، ومنهم من يُحسِن ، فهل يعتقدون - فى عُرْف العقل - أن يتركَ الله مَنْ أساء ليُعربد فى خَلْق الله دون أن يُجازيه ؟

ذلك يعنى أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعى أنْ يُنكروا البعث ،

---

(١) بوأه : أسكنه . وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . والمعنى : أى ننزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم فى الدنيا . [القاموس القويم ١/ ٨٨] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأماني الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذى يدفعهم إلى التضحية فى سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا بُدَّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام فى بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .

وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية فى مكَّة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة فى جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أىّ قبيلة فى الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه[1] .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغراهم بالقول حتى آمنوا به . لا ،

---

(١) يدل على هذا قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٩)﴾ [التوبة] .

فالصيحة الإسلاميةُ جاءت فى أذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمَّنهم الله فى رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه فى بلد السادة ؟ نقول : لا .. الصيحة فى أذن الباطل تكون فى بلد السادة فى مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتى على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتى فى المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد فى مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذى لا يستطيع أنْ يحميَ نفسه .. وهؤلاء هم الذين ظُلموا .. ظُلِموا فى المكان الذى يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بُدَّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل .. فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم .. مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلها لينظر أىَّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »[1] .

وتكفى هذه الصفة فى مَلِك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففى هذه المرحلة من نُصْرة الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوْا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهى هجرةٌ - هذه المرة - إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره فى رُبُوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ فى مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يُكرهه على الهجرة .. أى المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهى تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية بنحوه (١/٣٢١) .

ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التى حدثتْ من القوم هى التى اضطرتْه للهجرة .. وهذا ما حدث فى هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ، فكأنهم بذلك شاركوا فى الفعل ، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبى[1] :

إذَا ترحلْتَ عن قوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا   ألاَّ تُفارِقهم فَالراحلُون هُمُوا

يعنى : إذا كنت فى جماعة وأردْتَ الرحيل عنهم ، وفى إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون فى الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذى يتمنى كل مسلم الإقامة فى جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا

---

(١) هو : أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) . قال الشعر صبياً ، ادعى النبوة فى بادية السماوة وسجنه أمير حمص حتى تاب ورجع عن دعواه . وفد على الحكام والولاة فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر وبغداد وفارس وقتل بالنعمانية على يد فاتك بن أبى جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥١ عاماً . (الإعلام ١/١١٥) .

عليه ، وطبيعى إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ، ثم يعودون للإقامة ثانية فى مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. (٤١)﴾ [النحل]

ونلاحظ فى الحديث الشريف الذى يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها[1] فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] .

فما الفرق هنا بين : هاجر فى الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذى هاجر إليه أفضل من الذى تركه ، وكان الذى هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر فى الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً فى الله .. إقامتهم نفسها فى مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً فى الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

---

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [أورده ابن حجر فى فتح البارى ١/ ١٠] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. (٤١)﴾ [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ، وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفى الآية الأخرى :

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ذلك لأنهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كُلِّ مَنْ ظُلِم فى أىِّ مكان - فى الله - ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت[1] فى نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِمَّن اضطروا إلى الهجرة فِراراً بدينهم .

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٣١) .

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه - وكان رجلاً حداداً - لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنِّ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين. فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركونى أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صُهَيْب »[1] أى : بيعة رابحة .

ويقول له عمر - رضى الله عنه : « نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه » .

وكان عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُباً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. (٤١)﴾ [النحل]

نُبوِّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ.. (٢٦)﴾ [الحج]

أى : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يأوى ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٥١ ، ١٥٣) من حديث صهيب رضى الله عنه ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٣٩٨) .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحلهم ونُنزِلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهَدين في مكة ، فأصبحوا آمنين في المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهِّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام .. هذه هي الحسنة في الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١) ﴾ [النحل]

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين في الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا في الشرق في فارس ، وفي الغرب في الرومان ، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هي حسنة الدنيا المعجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١) ﴾ [النحل]

أي : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه في الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر - رضي الله عنه - إذا أعطى أحد الصحابة

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أكبر من هذا »[1]

فهذه حسنة الدنيا .

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

وساعة أنْ تسمعَ كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التى بوّأهم الله إياها هى (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم فى الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التفضيل أقلَّ فى المدح من غير أفعل التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) فى حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفى شعار نداءاتنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول فى الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا فى حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هى وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التى تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هى كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوّى ، وبها تجمع المال لِتسُدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّى الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدى الله أكبر .

---

(١) أورد هذا الأثر القرطبى فى تفسيره (٣٨٢٢/٥) ، وابن كثير فى تفسيره (٥٧٠/٢) ، والسيوطى فى الدر المنثور (١٣٢/٥) وعزاه لابن جرير الطبرى ولابن المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة ؛ لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة ، والمزرعة التى نُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفهُ من أن تكونَ غاية فى حَدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ㊶ ﴾ [النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا فى عمل الخير .

وأخيراً قد يُراد به المؤمن الذى لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .